نهـــاية الطريق

للكاتب المعروف دى فيرستاكيول

للأستاذ محمد بدر الدين

في سنة ١٩١٣ كنت أجول في أنحاء إيطاليا ، أطوف بمواطن الروعة والجمال فيها ...

وكنت أستقبل فصل الخريف ، حين خلفت روما ورائى ، وسرت نحو جبال الأبنين ، دون أن أحمل من المتاع سوى حقيبة صغيرة ، ودون أن أترك عنوانى لأحد ، كيلا أدع الفرصة لشخص يراسلنى ، فمن الخير أن نطوف وحيداً ، إذا أردت أن تشاهد بلداً من البلدان أو أن تدرسه خير دراسة

انطلقت في طريقى وحيداً لا ترافقنى غير مزارع الكروم والحقول المخضوضرة النضرة ، والسماء الزرقاء ، و... فلاحى إيطاليا ذوى البشرة السمراء ، لوحتها أشعة الشمس الحامية . فاستطعت أن أرى إيطاليا تتكشف أمامى على حقيقتها ، وإذا بها رغم الطرق الحديدية التى تخترق أرجاءها ، ورغم مخترعات ماركونى المنبثة في بقاعها ، لا تزال نفس إيطاليا القديمة ، التى كانت في عهد آل بورجيا

وفى ذات أصيل ، أفضت بى الطريق إلى فندق قام في معزل إلى اليمين ، لا يلوح إلى جواره منزل أو بناء ، وكأنما أقيم في مكانه هذا ليرحب بالقادمين الذين أنهكهم السير ، وليغريهم على التماس الراحة ، وعلى استعادة النشاط في كأس مترعة من الشراب ...

أغرانى الفندق المنفرد في عزلته ، والذى بدت لى عند بابه حروف زرقاء باهتة ألهبها شواظ الشمس ، تعلن عن اسمه ... « أوستريا ديل سولى » فتقدمت ، فإذا بكهل يجلس إلى يمين المدخل ، على مقعد طويل ، يمتع النفس بشمس الأصيل . وقد استلقت إلى جواره قطة سوداء . وما لبثت أن عرفت فيه صاحب النزل الذى قدم نفسه إلىّ باسم « ألفريدو باولى » ... وسرعان ما كنا نجلس في غمرة الأشعة الدافئة ، نتجاذب أطراف الحديث ، ونحن نجرع خلاله كئوس « الكيانتى » الذى قدمه الرجل إكراماً وترحيباً ...

تكلمنا عن إيطاليا ، وعن محصول الكروم ، وعن الضرائب ، وعن ذكرى غاريبلدى ... الذكرى التى عادت بالرجل إلى سنى عمره الباكرة . وما لبثت أن عرفت أن المدينة التى كنت أسعى إليها ، تبعد عن النزل بما يعادل ستة أميال. فاقترح الرجل أن أنزل عنده تلك الليلة ، وراح يغرينى بما سوف أجده في حجراته من نظام وراحة ونظافة ، قائلاً :

— إنه ليس بالفندق العادى ... فنحن هنا لا نرتقب من الضيفان غير الرحالة الذين يدفعهم النصب إلى التماس كأس من الشراب . ولكن حديثك يطيب لى ، حتى لقد ملت إليك ، فأنت على الرحب والسعة

كان ينبغى لرحالة مثلى يجوب البلاد على قدميه حاملاً معه مالاً ، أن يخشى من وراء دعوة كهذه شراً ، أو أن يتوقع غيلة من أجل هذا المال الذى يحمله . بيد أننى لم أك بطبيعتى ممن يستسلمون للهواجس والريب ، كما أننى لم أر في باولى العجوز ، الشخص الذى يستطيع الإقدام على سرقة أو قتل ...

ومع ذلك فقد سلبنى نوم ليلة ... وقتل راحة كنت أنشدها فما إن قبلت دعوته حتى اضطجع في مجلسه ونادى صائحاً :

— جيوفانا !

فأجابه صوت نسائى من داخل الدار ، ظهرت على أثره امرأة رزح ظهرها تحت عبء السنين . فأمرها — والشمس ترسل شعاعها الأخير — أن تعد العشاء ، وأن تهيئ الحجرة كما تملى واجبات الضيافة ، فتلقت الأوامر صامتة ، ثم كرت عائدة إلى الداخل ، بينما تحولنا إلى حديثنا عن غاريبلدى نتابعه

فلما فرغنا من تناول العشاء ، عدنا إلى مقعدنا خارج الدار ثانية ، وراح الكهل يقص علىّ قصته ... قصة شبابه التى لم أسمع في حياتى مثلها ، ولم أصغ لقصة من قبل أو ... بعد ، إصغائى لها فقد مضى يتكلم كما لو كان يفضى بقصة سواه ، وقد لاح كما لو كان الزمن قد حوله إلى كائن يغاير كل مظهر إنسانى ، تتخلل حديثه حيوية المتفنن الذى يتفانى في عشق فنه ، وحرارة الخطيب يحاول أن يأسر بفصاحته وبلاغته ألباب المستمعين ...

قال: ولدت في بيروجيا ، وهى غيرها اليوم ، وكان والدى تاجر عاديات ، يقوم متجره على ناحية الطريق التى تصل ميدان البابا

برحبة واسعة تتراءى خلفها تلال « أومبريان »

ولقد يخيل إليك ـ لأول وهلة ـ أن الموقع كان رديئاً. بيد أن والدى لم يكن بالرجل الذى ينصب شراكه فى مكان غير ملائم، إذ كان يعرف كيف يجتذب العملاء ويغرى الزائرين على الابتياع منه.

وكانت أسرته تتكون من ابنين ... أنا وأرتورو ، وقد كنا توأمين متشابهين كل التشبه . غير أن أرتورو كان ذا روح مغامرة، حببت إليه البحر، فما لبث أن غدا بحاراً، بينما مارست أنا ـ وكنت أكبره بخمس عشرة دقيقة ـ تجارة العاديات، فصرت مساعداً لأبى

كانت المهنة — رغم أنها تتطلب دراية تامة بالأشياء وبنفسيات الأشخاص — تعتمد كل الاعتماد على الخبرة التامة بتقدير ثمن السلعة والتأكد من أنها حقيقية غير زائفة ، وقد كانت لوالدى هذه الخبرة بالسليقة ، إذ انحدر من سلالة تعشقت هـذا الفن ، هواية أو احترافاً ... كما كانت لى نفس الخبرة إلى حد ما ، فقد كانت إيطاليا القديمة تتمشى فى دماء والدى ، كما كانت تسرى فى عروق بكل ما كان فيها ، وبكل ما كانت تتميز به ، و ... بكل ما عرف عنها من عواطف ومن حقد وكراهية ...

وسارت الحياة سهلة لينة، حتى بلغت العشرين ربيعاً، وإذ ذاك جاء يوم تغيرت فيه حياتى

فى ذات يوم ، قابلت فى طريق « دى بونتمبن » فتاة كثيراً ما صادفتها من قبل ، وطالما تلاقيت وإياها فى بعض المناسبات ، إذ كانت تصلها بى قرابة بعيدة . وكانت تسكن فى ذلك الميدان الذى يطلق عليه الآن اسم « فيكتور عمانويل » ... ثم كانت تنحدر من أسرة نشأت فى جنوا . فأضفى عليها أصلها هذا ، جمالاً أشقر رائعاً ، تبدى لى فى ذلك اليوم فى أبهى روعته ... فقد تمثلت لى يومذاك ، فتنة الشباب ، وجمال الربيع ، فى « جيوفانا باتسيتا » ، ولاحت لى ، مع أننى كنت أعرفها ـ كما ذكرت ـ وكأننى لم أرها قبل ذاك اليوم ...

وبالرغم من أننى كنت أحس جمالها ... إلا أنه لم يبعث فى نفسى يوماً أكثر من إعجاب وقتى ، لا يلبث أن يتلاشى ... أما فى ذلك اليوم ، فقد لاح لى أكثر فتنة وسحراً ... فما هى إلا نظرة من عينيها حتى وقعت فى شراكها ...

وحتى هـذه اللحظة ، لم يبد لى الأمر جدياً يثير اهتمامى ، فلو أننى سمعت إذ ذاك نبأ موتها ، لما نال منى كثيراً ... !

لم أقل لها إذ ذاك شيئاً ، ولم أنبس ببنت شفة ، بل مضيت فى سبيلى ، كشخص عثر بغتةً على كنز فى طريقه ، فأسرع يخبئه فى ثنايا ردائه ، وانطلق يجد فى خطاه نحو بيته ...

حتى إذا كان اليوم التالى ، قابلتها مرة أخرى ... وفى هذه المرة أيضاً ، أفضت إلى عيناها بما لم أجرؤ أن أصدقه . .

كنت حديث عهد بالهوى ، فلم أدر ما أفعل ... ولو أننى خلوت بها فى مكان ناء لكان فى وسعى أن أقدم على تصرف سريع ، دون أن أتفوه بحرف واحد . أما وقد كنت فى بيروجيا فلم يك أمامى غير أن أزورها حيث تسكن ، أو أن أبوح لها بحبى على قارعة الطريق ، فى جرأة أستمدها من أناة أتذرع بها ... ! وما كنت لأجد فى نفسى هذه الجرأة ، فما عتمت أن تحولت تاركا الأمور تجرى فى أعنتها... ولكنها لم تلبث أن غادرت المدينة !...

لم تلك غيبتها هذه إلا لنزهة قصيرة ما كانت لتستغرق الشهر أبداً ، بيد أننى كدت أقضى حزناً وأسى ، إذ أذكى البعاد أوار الحب فى قلبى ، وأصبحت أرى فى البقعة التى كنت أصادفها عندها ، قبلة أحج إليها . كما كنت أقف فى الأمسيات أمام دارها ، وقد غمرنى شعاع القمر ، والوجد يلهب أحشائى ، والأسى يمزقنى بأنيابه الحادة القاسية ... حقاً ، إن الحب جنون ! ...

لست أود أن أثقل عليك ، ولكننى أحببت أن أريك كيف شاء القدر أن يسعى للقضاء على ...

وأمسك الرجل برهة ليفرغ فى جوفه بقية كأسه ، بينما انبعث صوت المجوز من داخل البيت :

— الفريدو ... إننا الآن فى ساعة متأخرة

فضحك سائلاً إياها أن تدعه وما يشاء ، ثم عاد يتابع حديثه :

— برح بى الهوى حتى لم يبق منى غير هيكل بال لرجل ضعيف . فلم أعد أهتم بالعمل ، أو آبه للفن حتى لطالما اشتجرت مع والدى إذ أضمت عليه كثيراً من الصفقات المربحة

ولو أن الأمور سارت على هـذا المنوال ، لغادرت بيروجيا إذ ذاك مطرحا عملى ، هاجراً موطنى . غير أن الأقدار أشفقت علىّ ، فساقت إلى الشقاء يوماً . فقد عادت جيوفانا إلى المدينة ، وقابلتها فى الطريق، فلم أتردد فى البوح لها بما يعتلج بين جوانحى من غرام. فأطرقت تصغى إلىّ برهة، ثم تحولت فحدقت فى عينى، وابتسمت عند ذاك ، أيقنت أنها أصبحت لى ، فصرت رجلاً آخر...

كانت ثروتى وفيرة لا بأس بها ، وكانت أخلاق جميلة لا عيب فيها ، فلم أجد معارضة من والدى جيوفانا عند ما تقدمت

لطلب يدها . وصار لنا أن نلتقى كل مساء ، فننعم بجولة بديعة خارج المدينة ، عند الكروم الغناء ... ملتقى العاشقين ...

وتررنا أن يكون الزواج فى الصيف ...

ثم حان عيد « الكرنفال »

كان « الكرنفال » فى تلك الأيام الخوالى أكثر مرحاً وبهجة منه الآن . فكان الناس يطرحون عنهم شؤونهم ، وينصرفون عن كل شىء ، ليندمجوا فى ملاهيه وأفراحه

وفى آخر ليالى « الكرنفال » كنت على موعد مع جيوفانا عند بقعة قريبة من « دومو » ، وقد حلا لها أن تتنكر فى رداء غانية أسبانية، بينما اخترت أنا للباسى حلة مزركشة وقناعاً قرمزياً. ولما كانت صحة والدى معتلة فقد لزم البيت طيلة اليوم بعد أن أخبرته بالأماكن التى أعتزم ارتيادها، وبالمواقيت التى سأكون فيها هناك، حتى يكون فى وسعه الاتصال بى، إذا كانت ثمة حاجة لهذا الاتصال

كان موعدى مع جيوفانا فى الساعة السادسة إلا عشر دقائق عند « فونتى مادجيورى » على مقربة من « دومو » . وقد يخيل إليك أننى كنت هناك قبل الوعد شأن كل عاشق مستهيم ... بيد أننى فى الواقع وصلت إلى مكان الملتقى متأخراً . إذ كان بساعة صديقى مانفريدى الذى قضيت عنده فترة الظهيرة ، خلل جعلها تؤخر فى الوقت . بينما تعمدت أن أترك ساعتى فى البيت خشية أن يسلبنيها اللصوص الذين كانوا يندسون وسط المهرجانات فى مثل هذا العيد ... فلما وصلت إلى فونتى مادجيورى ، كانت النواقيس تدق ، فلم أكد أصدق سمعى ، لا ولا بصرى ، عندما ترامت الدقات إلى أذنى ، ولم أجد جيوفانا ...

ثم حدست ما وقع ... فلا بد أنها حضرت فى الموعد ، حتى إذا لم تجدنى انصرفت عائدة . ولو أننى فكرت فى هذا ، لأدركت مدى استحالة بقاء فتاة وحيدة فى الانتظار عند فونتى مادجيورى فى ليلة العيد ، ولأنحيت باللوم على نفسى بدلاً من أن أسمح للغضب أن يطغى فيجتاح قلبى ...

كنت أعلم أن جيوفانا رغم ليونتها ورقتها ، ذات طباع حادة قاسية . فظللت واقفاً أتلفت حولى وهذه الفكرة توحى إلى بما يذكى نيران الغضب ويزيد شعلتها لهيباً . بينما كان القوم يمرون بى فى طريقهم إلى الساحة لمشاهدة موكب العيد ، وهم فى أحاديثهم وضحكهم عنى لاهون . . . ثم تحولت إلى حانة ، فاتخذت لنفسى فيها مجلساً ، وطلبت شراباً قوى التأثير ، رحت أحتسيه وأنا غافل عن رجل أسمر ، كان يجلس إلى منضدة قريبة ...

لم أسرف فى الشراب قط مثلما أسرفت فى تلك الليلة . فقد لاح لى الكحول ساحراً يدد غضبى وأبدل به شيئاً من اليأس ، الذى لم يلبث أن تحول إلى شعور من عدم المبالاة . وسرعان ما تناسيت جيوفانا ، واندمجت فى الحديث مع الرجل الأسمر ، الذى عرفنى وناداني باسمى ، يدعونى إلى مجالسته

كان الرجل أحد تجار التحف فى بيزا ، وقد رأيته فى متجر والدى يومذاك ، إذ ذهب ــ رغم العيد ــ يسعى وراء صفقة . بيد أنه لم يحظ بفائدة لمرض والدى . وكانت لديه تحف رائعة ثمينة يبتغى بيعها بثمن بخس ، إذ حصل عليها فى سرقة ارتكبها فوجد أن من الخطر استبقاءها فى حوزته فى بيزا . وقد أرانى منها بوديتى ــ إذ كان هذا اسمه ــ صليباً من الذهب المرصع ببعض الأحجار الكريمة ، وقرطاً ، وخنجراً من الخناجر الفلورنتينية ذا مقبض فضى . فعرضت عليه أن أبتاعها منه، غير أننى لم أك أحمل الثمن الذى ابتغاه. فلم يأبه لذلك، إذ كانت معاملاته معنا على ما يرام لذلك تناولت منه هذه الأشياء ، فوضعت الصليب فى صدر ردائى ، ودسست الخنجر ــ وقد غاب فى قرابه ــ فى جيب خفى ...

وما إن فارقنى بوديتى، حتى عدت ثانية، نهبة للهواجس وفريسة للهموم . ولما بارحت الحانة، كانت الأضواء تتلألأ مؤتلقة فى المدينة وقد تصاعد ضجيج الجماهير المندمجة فى مهرجانات « الكرنفال » كهدير الأمواج الصاخبة . فوقفت برهة موزع الخاطر متحيراً ، ثم تحولت نحو ساحة الاحتفال ، وأنا أسائل نفسى ... أما كان يحسن بى أن أيمم شطر بيت جيوفانا ؟ ...

لاحت لى المدينة كمجنونة اكتسحتها نشوة الفرح التى يمنها العيد ، وقد تراءت كشعلة من النيران ، وبدا الناس وهم صرعى نوبة من الخبل المرح ، يحيطون بالساحة يشاهدون « مصارعة الثيران » فاندمجت بينهم ، وقد تناسيت جيوفانا . حتى إذا انتهى الصراع ، وتشتت القوم متفرقين وجدتها أمامى !

كانت فى صحبة رجل ... وقد أولياني ظهريهما فلم يريانى ، بينما أحاط الرجل خصرها بذراعه ، ومضى يشق لكليهما طريقاً وهم يضحكان فى حبور . فدوت ضحكاتهما فى مسمعى كقصف الرعد . إذ كان يخيل لى أننى الرجل الوحيد فى بيروجيا ، الذى اصطفته جيوفانا خليلاً ، وتعرفت إليه ...

وقفز الخنجر من جيبى إلى يدى ، فكدت أغمده فى ظهر

رفيقها لو لم تندفع كوكبة من الخيل إلى الساحة تتسابق ، فحالت بيني وبينهما . فلما مضت لم يك ثمة أثر لجيوفانا ورجلها ! ...

ولك أن تتصور موقفي ، وقد أعمتني ثورة الغضب ، بينما أخذ الخنجر يخز راحة يدي ، وضحكات القوم تستثيرني وتوهمني بأنهم جميعاً يعرفون قصتي ويسخرون مني . بيد أن إرادتي كانت قوية فلم ألبث أن أعدت الخنجر إلى جيبي وأنا أحمل النفس على الصبر وأعللها بالأماني ... واندمجت مع القوم

وما لبثت أن ظفرت بثمرة صبري ، إذ عثرت على جيوفانا ورفيقها في طريق « بيكولو امبرتو » ، فرحت أقترب منهما حتى بت في وسعي أن أحصي الشعيرات خلف رأسها ، أو أن أحل الرباط الذي يثبت القناع على وجه صاحبها . ولكن يدي لم تعد تتحسس الخنجر هذه المرة ؛ فقد وجدتني في أهدأ الحالات ، أتحين اللحظة الملائمة لإنفاذ انتقامي دون أن أعرض نفسي لأتفه الأخطار

تبعتهما في طريق « بيكولو امبرتو » وهما يسيران في عزلة عن القوم لاهيين ، وقد غابا في غمرة سعيدة أنستهما ما حولهما ، حتى أنهما لم يلتفتا نحوي مرة واحدة ...

ثم ... لحظة واحدة يا سيدي ...

وهم بأولى من مجلسه فحمل زجاجة الشراب الفارغة ، وغاب في المنزل ... وسمعته يسأل جيوفانا عن مفتاح المخزن ، فأجابته بصوت نم عن غضبها لإقلاق راحتها ، وكأنما كانت متذمرة لبقائه ساهراً حتى تلك الساعة المتأخرة ، في جو الليل الرطب البارد ، يتناول الشراب مع شخص أجنبي لم يسبق لها التعرف إليه ...

ثم عاد يحمل زجاجة جديدة من الشراب ، فاتخذ مجلسه ثانية وتابع حديثه وكأنما لم يقطعه على نفسه ...

اتبعتهما في الطريق ، حتى وصلنا إلى أخرى تفضي إلى بيتها . وقبيل باب الدار ، افترقا ...

لم أصدق عيني وأنا منزو في مخبأ في الطريق . فقد كانت بيروجيا بأسرها — لا الحي وحده — تعرف أنني خطيبها وأننا سنصبح عما قليل زوجين . ومع ذلك ، فهأنذا أراها قبيل الزواج ببضعة أشهر تساير شخصاً غريباً على أثر إهمال بسيط صدر مني عفواً ودون إدراك مني ... شخصاً التقطته من بين الأفواج المتدفقة في ساحة « الكرنفال » !

ودلجت هي بيتها ، بينما عاد هو في الطريق يصفر فرحاً جزلان ، فما إن ابتعد عني ثلاثين خطوة ، حتى تسللت في أثره ، وقد قررت — بعد إذ رأيت ما بينه وبينها من علاقة — أن أقدم له الجزاء الذي يستحق ... كان يجب أن يموت ، وكان ينبغي أن تموت هي أيضاً ، ولكنه الأجدر بالأسبقية في تلقي الجزاء !

كان من السهل أن أغتاله في تلك الطريق ذات الأضواء الضئيلة، التي لا تكاد تقوى على مكافحة الظلام الطاغي ... ولكن ... ألا يجوز أن يقبضوا عليّ ، فتفلت هي من انتقامي ؟ ...

وصمت العجوز مرة أخرى ، لينزع عن الزجاجة سدادها ، فيملأ الكأسين، بينما كان القمر قد اعتلى كبد السماء، وازداد ضوؤه الفضي تألقاً، حتى تراءى لنا المنظر المحيط بنا، وكأنه يبدو في وضح النهار . حتى إذا أفرغ كأسه في جوفه ، عاد يقول متابعاً قصته :

« لعلك تقدر موقفي يا سيدي ، فقد كان عليّ أن أحرص على حياتي ، حرصي على كنز ثمين ، حتى أتم انتقامي كاملاً ، وهذا لا يتأتى إلا إذا فرغت من حساب جيوفانا على ما قدمت ...

ومع ذلك ، ظللت أتعقب الرجل ! ...

والظاهر أنه كان قد اختطف ألعوبة « شخشيخة » أحد المهرجين ، أثناء المهرجان ، فراح طيلة الطريق يهزها يمنة ويسرة ويضرب بها ظهور الناس خلال الزحام، وهو يضحك ساخراً لاهياً في غفلة عن ذلك الذي يتعقب خطاه، معداً خنجره للقضاء على حياته

كان يلوح كمن يبتغي اجتذاب أنظار القوم . فكان يسخر من كل فتاة أو شاب يعترض طريقه ، ويهزأ بكل عجوز أو كهل يصادفه ، مرسلاً قهقهته عالية في الجو . وكأنما هو لم يكتف بما نعم به من سعادة في رفقة جيوفانا، فما لبث أن أوقع في أحبولته فتاة أخرى، أحاطها بذراعه ثم دفعها معه ، وقد تبعتهما صيحاتها وهو غير مكترث بهن . ولعله كان يحمل نقوداً وفيرة إذ لجأ إلى مشرب راح يبعثرها فيه بغير حساب ...

ما كنت أرى وجهه، فقد كان ظهره نحوي. بيد أنني كنت أرى أنه قد وفق في أن يغدو الروح الحية للتي ظهرت في المشرب فطغت على كل من فيه ، ثم . . . تفرق الجميع كل إلى وجهته ، فعاد وحيداً يسلك طريق « أندريا دوريا »

وهنا ... وجدت الفرصة الملائمة ! ...

كانت الطريق مقفرة ، ولم يك ثمة من يرانا ، وحتى لو وجد هذا فقد كان الظلام الضارب فيما بين المصابيح ، لا يدع لأحد الفرصة كي يتأملنا جيداً ؛ فلم ألبث أن أمسكت بكتفه ، ورحت أنظر إلى وجهه الذي كان شاحباً ، تعلوه كآبة تبعث في النفس

الرغبة فى تهشيمه... كنت مجنوناً، وقد أخذت الوقائع التى حدثت فى ذلك اليوم تتتابع متزاحمة فى رأسى... كان هناك حبى لجيوفانا، وغيرتى، وحقدى، ثم... مفعول الكحول القوى... كل هذا كان يدفعنى نحو الجنون، بينما أخذ الشاب يقاومنى فى نضال، وأحسست بسكين تصيب كتفى الأيسر ؛ ثم هويت إلى الأرض بينما كنت أغمد خنجرى فى قلبه بكل ما واتانى به الحقد والغيرة من قوة !...

سقط الرجل عند قدمى جثة هامدة شاحبة ، وما يزال الخنجر مدفوناً فى صدره . ولكننى لم آبه لذلك ، ولم أسع إلى الفرار ... ولعل هذا أغرب ما حدث ... فقد كنت أنتوى قتل جيوفانا ، ثم أنتحر ، ولذا لم أجد ما يبعث على الفرار !

لم أكد أدرى لكل هذا سبباً . غير أننى أدركت فيما بعد ، أن عقل الإنسان لا يطيقه فى كل الأحوال ، وإنما هو — فى المآزق الحرجة والمآسى الروعة — يتمرد عليه ليعمل بإملائه ووحيه ...

جررت الجثة إلى مدخل المبانى القائمة فى الطريق فأسندت ظهرها إلى الباب حتى بدا صاحبها تحت ضوء المصباح الغازى الصغير المعلق فوق المدخل ، وكأنه ثمل غلبه النعاس . ثم انطلقت فى طريقى بعد أن تحققت من المكان الذى تركت فيه جثة غريمى

لم يعد أمامى بعد هذا إلا أن أحاسب جيوفانا ، لذلك يممت شطر بيتها ، ودققت الباب ثم ولجت ...

كانت أسرتها ما تزال غائبة فى « الكرنفال » ، وكانت هى لم تأو بعد إلى فراشها ، فما لبثت أن هبطت للقائى ...

وكنت أقف فى الحجرة التى اقتدت إليها عند حضورى ، متكأً إلى منضدة فى قبالة الباب ، عند ما قدمت . فما رأتنى حتى حدقت فى وجهى دهشة وتساءلت :

— لماذا عدت ثانية ؟

فأطلقت ضحكة عالية، ولم أنبس ببنت شفة. وإذ ذاك تراجعت وقد لاح على محياها الفزع ؛ غير أننى لم أفكر فى أن خوفها هذا قد يكون منبعثاً عن غرابة مظهرى وعن إخلاصها لى . وإنما خلت أنها فطنت إلى أننى كشفت خيانتها ، فكان هذا مصدر جزعها ، لذلك صحت بها :

— ما اسمه ؟

— اسم من ؟

— من !؟ الرجل الذى أوصلك إلى باب هذا المنزل منذ ساعة

— إننى لم ألتق بسواك هذا المساء ...

لاح لى أنها كانت تنطق عن حقيقة وصدق . فبدأت أفهم الأمر ... لا بد أن ثمة شخصاً اتخذ مظهرى وتقدم إليها منتحلاً شخصيتى . فلما أفضيت إليها بما ساورنى ضحكت قائلة :

— لقد كنت أنت الذى رافقنى ، وقد وضعت على وجهك قناعاً زائفاً ... ثم كان موعدنا وملتقانا عند فونتى مارجيورى ، وهذا ما لا يعرفه سوانا ...

فصحت :

— يا لله ! ... ولكننى لم أقابلك إذ تأخرت عن موعدنا ...

خيل إلىّ أنها ظنتنى مجنوناً أو كاذباً ... وتراءى لى الأمر كله ، فظللت صامتاً يداخلنى الشك فى صحة قواى العقلية ؛ بل لقد أيقنت أننى مجنون ، فرفعت القناع المقرمزى عن وجهى وأطرقت إلى الأرض. ثم... تذكرت الرجل الذى خلفته مستنداً إلى الباب فى تلك الطريق القفرة بعد أن سلبته الحياة. وإذ ذاك خيل إلىّ أن ثمة قوى خفية تسيطر علىّ وتدفعنى إلى أن أغادر البيت.. البيت الذى دخلته لأقضى على جيوفانا، فخلفته وأنا نصف مجنون، تسوقنى قوى خفية — رغم إرادتى — إلى حيث لا أدرى ...

وجدتنى أخيراً عند باب بيتى ... وكان المنزل مظلماً عند ما ولجته ، فأغلقت الباب خلفى وتقدمت . وإذ ذاك سمعت والدى يصيح متسائلاً عن القادم ، إذ كان ملازماً حجرته لمرضه . فلما وصلت إليه ، وجدته جالساً فى الفراش ، متدثراً بالأغطية ، وعلى ركبتيه كتاب مفتوح ، وإلى جانبه المصباح . فما إن رآنى حتى بادرنى :

— آه ، أهذا أنت ؟ ... وأين أرتورو ؟ ...

والآن ... لعلك تذكر أننى أخبرتك فى بداية القصة ، أنه قد كان لى أخ أحب البحر فعمل كلاح . وأنه كان يشبهنى كل الشبه ، إذ كنا توأمين

صحت بدورى أسأل والدى :

— ماذا تعنى ؟ ... إن أرتورو فى البحر ...

بيد أننى لم أتم كلامى حتى خالجنى شعور رهيب ، كاد قلبى أن يقف له عن الوجيب ، بينما سمعت والدى يقول :

— لقد عاد أرتورو اليوم ، فانطلق يبحث عنك ، بعد أن أخبرته أن فى وسعه أن يعثر عليك عنـد فونتى مادجيورى فى الساعة السادسة ، إذ أخبرتنى أنك ستلقى جيوفانا ...

وإذ ذاك ، شعرت بالأرض تميد بى ، فتهالكت على مقعد

بجوار فراش أبى ، ومضيت أقول دون وعى :

— لقد تأخرت عن الموعد ، وسبقنى أرتورو إلى هناك ، فظنته جيوفانا إياى ، وتقدمت إليه ، ولما كان يعرف أنها خطيبتى فقد شاء — حباً فى المزاح — أن يدعها على اعتقادها ، وبعد أن طاف برهة فى رفقتها ، أوصلها حتى باب دارها ثم ودعها وهو ما يزال منتحلاً شخصيتى . اتخذ طريقه عائداً ، يساوره الأمل فى أن يلقانى فيضحك معى للفصل الذى أتقن تمثيله . بيد أنه لم يك يدرك أننى أتعقبه طيلة ذلك الوقت ، ظاناً أنه شخص غريب سلبنى خطيبتى ، وأوقد فى أعماقى نيران الغيرة

فانتفض والدى بغتة فى فراشه ، وكأنما أصابته رصاصة ، وصاح :

— ماذا تقول ؟ ... ما الذى تعنيه ؟ ... أين أرتورو ؟ فأجبته : لقد مات غيلة بخنجرى الذى لايزال فى صدره ...

فهت بهذه الكلمات وأنا هادئ كل الهدوء ، كما لو كنت أنقلها عن شخص آخر كنت لا أستطيع أن أتصور ما فعلت ، وأن أعتقد حقاً أننى ارتكبت تلك الجريمة ! ...

أجل يا سيدى، كان هذا عين ما حدث .

وأطرق الرجل برهة ، وكأنما غلبه الأسى لتلك الذكرى ، ثم ما لبث أن عاد يقول :

— غير أنهم لم يعاقبونى ، إذ أخذتهم بى الشفقة عندما رويت لهم قصتى ، كما أرويها لك الآن ...

وما لبثت بعد ذلك أن تزوجت جيوفانا ، سافرنا إلى بيزا معاً فاستقر بنا المقام هناك ...

كان هذا منذ سنوات ، وقد مضينا عقب ذلك فى الحياة ، دون أن نوفق إلى جمع ثروة أو عقار ، اللهم إلا هذا الفندق الذى امتلكناه أخيراً ...

ومع ذلك فإننا فى نهاية المرحلة ... فماذا يهمنا ؟ ...

وفرغنا من الشراب ، فقادنى إلى الغرفة التى أعدت لنومى . وفيما كنت مستلقياً فى فراشى ، يقظاً أتأمل شعاع القمر ، وقد تساقط على جدار حجرتى ، وأنصت إلى حفيف أشجار الزيتون ، يداعب أغصانها نسيم المزبع الأخير سمعت جيوفانا تقول ساخطة :

— هل أويت إلى فراشك أخيراً ؟ ... جميل حقاً ، أن تدعنى يقظة حتى الآن فى انتظارك ! ! ...

محمد بدر الدين

مطبعة مصر

المؤسسة التى خلقت النهضة الحديثة فى فن الطباعة

تقوم بطبع

الكتب والدفاتر التجارية والإجندات والمذكرات والنتائج والأسهم والسندات

فى أجمل رونق

بها ورشة خاصة على أحدث استعداد للتجليد الفاخر

مركزها

شارع نوبار باشا رقم ٤٠ بالقاهرة

تليفون ٤٢٣٩٩ ٤٠٣١٠ ٥٢٧٣٣ ٤٢٤٣٥

(سجل تجارى رقم ٥)